نحو نموذج لدراسة دور وسائل الإعلام في العالم العربي
مرافعه ضد استيراد نماذج الآخر ووجوب استلهام قيم البيئة في دراسات الاتصال

د. محمود محمد قلندر*

مقدمة

يقترح هذا المقال نموذجاً نظرياً يمكن من خلاله قراءة العلاقة بين وسائل الإعلام وأنظمة الحكم في العالم العربي، والتي تعرف في التراث الأكاديمي بتعبير " النظم الصحفية" media systems . ويقوم النموذج المقترح على مجموعة من المدخلات التي تشكل القاعدة التي يستند عليها في اقتراح شكل العلاقة بين نظام الحكم وبين وسائل الإعلام في أي بلد. وبالرغم من أن النموذج يركز على العالم العربي ، إلا أن المعطيات الأساسية له، يمكن أن تصلح لقياس واقع العلاقة بين وسائل الإعلام في غير البلدان العربية، كالإسلامية مثلاً، وذلك لأن النموذج يتجه إلى اعتبار البيئة الاجتماعية الثقافية العنصر الأساس في تحديد دور ومكانة الاتصال ووسائله في المجتمع.

وفي سبيل بناء الحجج للمعطيات البيئية للنموذج المقترح، ينتقد المقال البحوث والتعليم في المنطقة لتفسيرها للسلوك الاتصالي في البيئة العربية والإسلامية، اعتمادا على المفاهيم النظرية والنماذج المستجلبة.ويراجع -في ذلك- نموذجاً تم طرحه باعتباره مناسباً لقياس العلاقة بين وسائل الإعلام في العالم العربي، هو نموذج وليم رو لأنظمة الصحافة العربية، الذي يعتبره الكثيرون مرجعاً مهماً يتم استخدامه لشرح العلاقة بين الصحافة والنظم السياسية في العالم العربي.

وسائل الاتصال والمجتمع

الاتصال في كل زمانٍ ومكانٍ، خاصٌ بمعطيات البيئةالتي يتم فيها. ومن ثم لاينبغي أن نسحب واقع مكانٍ وزمانٍ على واقع مكانٍ وزمانٍ آخرين. فلا استيعاب لخصائص السلوك البشري الاجتماعي ودقائق الفعل الإنساني المنْفَرِد أو المجْتَمِع ، إذا ما تم تعميم خصائص مكانٍ أو زمان، على زمانٍ أو مكانٍ بعيدين عن بعضهما.إن الاتصال هو ركيزة الوجود للمجتمع الإنساني على إطلاقه. فلا ينشأ مجتمع إنساني إلا بتواصل أفرادٍ جمعتهم الرقعة الواحدة، فاستبانوا معنى الوجود المشترك من خلال تواصلٍ إنساني استوعب معطيات المكان وعلاقات الإنسان، وخلص ذلك التواصل بذلك المجتمع إلى التفاهم والترابط عبروسيط مستند على خصائص المجتمع.

من منطلق أكاديمي إذن ،يمكن الجزم بأن السعي نحو فهم دور ومكانة الاتصال، بحثا أو تعليما، ينبغي أن يستند على قواعد المجتمع وخصائص جماعاته الثقافية والقيمية[1]. والنظرة الثاقبة إلى واقع تعليم الاتصال في المنطقة لن تخطئ ملاحظة أن الإرث الذي ينهل منه اليوم طلاب علم الاتصال على اختلاف بيئاتهم

---

* استاذ مشارك –جامعة قطر.

[1] يكفي التذكير هنا بمناظرات نهاية سبعينيات القرن الماضي بين المدارس الاتصالية الفكرية المختلفة إوالتي أفضت إلى قيام لجنة ماكبرايد التي أوصت بما عرف بالنظام الإعلامي العالمي الجديد.

زماناً ومكاناً، هو نتاج ثقافة أخرى، هيمنت بخصائصها ومعطياتها الإنسانية الفكرية والسلوكية على واقع العلم، فاختارت اتجاهاته، ورسمت نماذجه وبنت نظرياته على قواعد صلحت للزمان والمكان اللصيقين بتلك الثقافة. وبذلك فإن طالبي هذا العلم البعيدين عن الثقافة المبتَدِرة، إنما يتلقون –حين يدرسون- علماً قد تصلح بعض معطياته للتعميم، ولكن جزء كبيراً من مستحدثاته يقوم على خصوصية البيئة التي تجعل نمذجة التجارب والنظريات، وقبولها في غيرها من البيئات خطأً يرقى في بعض حالاته إلى الخطيئة[2].

إن طلابنا في العالم العربي والاسلامي، درسوا ويدرسون علم الاتصال بما ساد من نظرياته في زمانٍ ومكانٍ بعيدين كل البعد عن عالمهم وواقعهم الثقافي. لقد ازدحمت قاعات الدراسة في كليات الإعلام في العالم العربي والإسلامي بحفظة نظريات الصحافة الأربع، ونماذج بيرلو، وشرام، وشانون، ودعاة الإيمان بتأثير وسائل الإعلام السحري المباشر كالرصاصة، وغير السحري وغير المباشر المتعدد المراحل، ولاحقا ببناة فكر اتصالي لحمته وسداه نماذج المدرسة النقدية المولودة من رحم المدرسة الفرانكفورتية[3].

والوقع أن سيادة النماذج والفكر الغربي في مجال الإعلام والاتصال، لا يقع وزره على أساتذة الاتصال، بقدر وقوعه في عُبِّ الساسة والمفكرين العرب والمسلمين. فالذي سيَّد الفكر الاتصالي الغربي، هو سيطرة الفكر السياسي ونهج الاقتصاد الغربيين في أوطاننا[4]، حتى صار نمط الحياة والسلوك موازياً في كل شيء لذلك الغربي منهما. ولم يكن الإعلام ،مهنة وعلماً، بعيداً عن الاستجابة لحاجات المجتمع الرأسمالي[5]، فالاتصال في أساس الفكر الغربي هو الناقل للفكر والباسط لمحاسن الفعل والسلوك، فلا تقوي فكرة فيه أن تسري، أو سلوك أن يسود إلا باتصال مؤمن بالفكر، ومتفاعل مع الفكرة. وبذلك تكامل الاقتصاد والاتصال في منظومة أهداف المجتمعات الغربية.

التكامل الفكري-المعرفي بين الاقتصاد والاتصال

إن نموذج التكامل المعرفي بين الاقتصاد والاتصال –في منظومة الفكر الغربي- نموذج مشهود له من المفكرين والمنظرين في كلا الحقلين. فلا إنكار لتلك الصلة الوثيقة بين نمو المدارس الفكرية الاتصالية في حضن الاقتصاد الرأسمالي وارتباط التطورات المعرفية في علوم الاتصال بمناهج المدراس الاقتصادية الغربية القائمة على الملكية الفردية ومبدأ سوق التنافس الحر.

وتلخيصاً لواقع العلاقة بين الاقتصاد والاتصال في منظومة الفكر الغربي، يمكن القول بأن الاتصال نمى في حضن الاقتصاد الذي شكل له المهد في حركة التنظير الفكري. وهناك مثال شديد الوضوح لمثل هذه

---

[2] قلندر، محمود؛ عوض،محمد باكر (2009)، "اتجاهات البحث في علوم الاتصال". دمشق: دار الفكر.

[3] نفس المصدر.

[4] ياجي، خالد (محرر) (2007). الإسلام والغرب: نحو عالم أفضل" . سلسلة ندوة الجزيرة: شبكة الجزيرة.

[5] سعت بحوث الاتصال منذ البداية خلال الحرب العالمية للاستجابة لحاجات المجتمعات الغربية، كما فعلت في حالة دراسات الدعاية ودور السينما والصحافة في استقطاب الجماهير للحربين العالميتين.

الصلة الفكرية بين الحقلين تقدمه لنا نظرية اقتصادية غربية شهيرة سادت في حقبة الستينات، هي نظرية النمو الاقتصادي للمفكر والت روستاو[6]، والتي قدمها صاحبها كنموذج للنمو الاقتصادي المنافس للنموذج الشيوعي الذي كان مطروحاً بقوة وقتها.

لقد جاءت نظرية روستاو في كتاب له شهير هو "مراحل النمو الاقتصادي"[7]، طرح فيه فكرة التنمية الاقتصادية بوجهها الرأسمالي باعتبارها حتمية تاريخية لا يمكن الإفلات منها. وتكمن فكرة روستاو في أن كافة المجتمعات لابد أن تمر بمراحل خمسة على طريق تطورها، فهي تبدأ مجتمعاً تقليدياًTraditional society ، ثم تدخل مرحلة"ما قبل الانطلاق" pre-take-off، فمرحلة الانطلاق take-off، ثم مرحلة النضج، ثم المرحلة القصوى- وهي بيت القصيد-، مرحلة الاستهلاك الجماهيري high mass consumption. ويتضح من خلال مراحل هذا النموذج وجهته الاستعلائية الغربية West-centric، والتي اعتبرت المجتمعات التقليدية (حالة تخلف) ينبغي الفكاك منه بالانطلاق إلى رحاب "النضج" حتى الوصول إلى المبتغى، وهو حالة المجتمع الاستهلاكي الشامل. ليس غريباً إذن، أن عدد من مفكري العالم الثالث قابلوا النظرية بالنقد منذ نهاية ستينيات وبداية سبعينيات القرن الماضي، لعل أبرزهم وأكثرهم مواءمة لطرحنا هنا، هو المفكر العربي سمير أمين[8]، والذي نظر إليها باعتبارها دعوة لسلوك دول العالم الثالث طريق التطور الرأسمالي، عبر التمسك بنموذج التنمية الاقتصادية الغربي القائم على نمط المجتمع الاستهلاكي.

يعتبر نموذج روستاو هذا أحد دعامة الفكرالغربي الذي نادى بأن المجتمعات المتخلفة لا ينبغي أن تترك لكي تنمو نمواً طبيعيا متدرجاً، بل ينبغي أن يتم فيها التدخل intervention ، لكي يحدث النمو الاقتصادي عاجلا وبإرادة القوى المهيمنة. فصار النموذج "إنجيل" الاقتصاديين الغربيين الذين راحوا يخططون لدول العالم الثالث (أو النامي) في ستينيات القرن الماضي، فخرجوا بوصفة تقوم على بناء اقتصادها على خطى الاقتصادي الغربي، القائم على التصنيع الثقيل باعتباره سبيل النهضة الاقتصادية. وصارت أفكار روستاو وأشباهه من الاقتصاديين، الوصفة السحرية التي قدمتها الدول الغربية إلى مستعمراتها المستقلة حديثاً، فنهض في تلك الدول جهد محموم سعى لبناء اقتصاد يقاربها من اقتصاد الغرب القائم على التصنيع، ولما لم تكن تلك الدول تمتلك مقومات التصنيع، فقد اعتمدت على المستعمر

[6]Rostow, Walt Whitman (1962), "The Stages of Economic Growth: A no-communist Manifesto" London: Cambridge University Press.

[7]Id, pp. 4-16.

[8]Ameen, S. (1977).Imperialism and Unequal Development. New York: Monthly Review Press.

السابق في التخطيط والتنفيذ، حتى نمت علاقة اعتماد تام من قبل دول العالم الثالث على الدول المستعمرة، عرفت في القادم من حقب، بعلاقة الاعتمادية[9] dependency.

وكانت فكرة التحديث modernization هي وسيلة التحول من المجتمع التقليدي traditional إلى المجتمع الحديث modern ولكنها، كما نقدها بعض الكتاب[10]، جاءت وصفة غربية قائمة على فكرة تغيير واقع الوجود، بتمدين القرى، وتسييد نمط سلوك غربي، يتم من خلاله، حسب مفهوم روستاو، القفز من مرحلة المجتمع التقليدي، إلى مرحلة التحضر الذي يسود فيه نمط الاستهلاك كأحد وجوهه الاقتصادية.

من نموذج روستاو إلى نموذج ليرنر الاتصالي

ولكن كيف يمكن للغرب بيع فكرة النمو الاقتصادي ذي الملامح الغربية إلى الجمهور العريض في العالم النامي؟ صحيح أنه لم يكن لدي الغرب كثير مشكل في بيع النموذج الاقتصادي للصفوة التي تعلمت وعملت وكونت فكرها في البيئة الغربية، ومن ثم صارت هي المبشرة بالنموذج الغربي باعتباره وسيلة الخلاص من إسار القديم المتخلف، والانطلاق إلى رحاب الجديد المتحضر.أما بالنسبة للجمهور العريض، فإن بيع أفكار التحديث احتاج إلى أدوات ووسائل قادرة على البلوغ إلى عقول وقلوب الجماهير. وقد جاء ذلك في نموذج اتصالي اقترحه دانيل ليرنر "كوصفة سحرية"، بها يمكن تحقيق صبوات روستاو في التنمية الاقتصادية للعالم النامي . يتوافق نموذج ليرنر مع نموذج روستاو، لأنه بني على فكرة التحديث modernization المأخوذة من الفكر الاقتصادي الروستافي[11] فكرة تسخير وسائل الإعلام لتكون الأدوات المحفزة لإحداث التغيير. فحسب نموذج روستاو، لن تتحقق التنمية إلا إذا تم الفكاك من إسار المجتمع التقليدي والانطلاق إلى رحاب المجتمع الحديث، ولكي يحدث ذلك لابد من الالتزام بالنمط الماثل نموذجاً، وهو النمط الغربي. باختصار، كان التحديث عند بعض المفكرين والأكاديين المعاصرين يعني الغربنة[12]. westernization

لقد رأي ليرنر في وسائل الاتصال الجماهيري، الوسيلة الأكثر قدرة على تحقيق أهداف التحديث كما قدمها روستاو وأشباهه من المفكرين الاقتصاديين. فهي يمكن أن تكون وسيلة الانتقال من المجتمع التقليدي (المرحلة الأولى في النموذج الروستافي)، إلى المجتمع الاستهلاكي (المرحلة الأخيرة). ولكن لن يحدث ذلك إلا بالتخطيط الدقيق، فالوسيلة وأثرها موثوق بهما بحكم النظرية الاتصالية الأكثر سيادة وقتها

---

[9]Frank, A. G. (1969). Capitalism and Underdevelopment in Latin America .New York: Monthly Review Press.

[10]Karen, P. &Barbato, R. (1985). The multinational corporation in the less developed country: The economic Development model versus the north-south model. Academy of Management Review, Vol. 10. No. 1. 18-14.

[11]Lerner, D. (1964). The Passing of Traditional Societies: Modernizing the Middle East. Glencoe: Free Press.

[12]Said,E. (1978).

– سمها الرصاصة السحرية أو الأثر المباشر- ، وكان مطلوباً أن يتم التخطيط ليكون محتوى الوسيلة متجهاً نحو هدف التحديث. اعتبر ليرنر وسائل الإعلام الجماهيرية وسيلة نقل المجتمعات المتخلفة والتي تناولتها دراسته (تركيا، مصر، لبنان، سوريا الأردن إيران) من التقليدية إلى العصرنة[13]. وتركزت أفكاره حول وجوب التدخل لإحداث التغيير (عبر وسائل الإعلام) في أنماط الفكر والسلوك في أفراد المجتمع التقليدي، باعتبار أن ذلك التدخل يشكل الظروف المساعدة لحدوث الانطلاق التي وصفها روستاو. "فالظروف المساعدة" تكمن في ذلك الوعي الذي تخلقه وسائل الاتصال الجماهيري وسط الجمهور بحتمية الخروج من التقليدي من أجل الوصول إلى نموذج الحداثة.

نموذج ليرنر: الاتصال في خدمة الفكر اللبرالي

لقد كان من الطبيعي والمنطقي أن يغرق نموذج ليرنر في بيئته؛ فالفهم الغربي الأوروبي للنهضة الاقتصادية – حسب روستاو- هو في سيادة الاقتصاد الحر واعتماد التصنيع الثقيل، في إطار فكر سياسي لبرالي. ومن ثم فإن النموذج الاتصالي المنبثق من مثل هذا الفكر، لا يمكن أن يكون إلا نموذجاً يثبت أركان اللبرالية القائمة على اقتصاد السوق الحر. لهذا فقد ارتبط نموذج ليرنر الاتصالي – في فكرته المركزية- بترويج الفكر السياسي اللبرالي وتثبيت دعائم الاقتصاد الرأسمالي. إن دانييل ليرنر في أساسه هو مفكر اجتماعي قبل أن يكون باحثاً في علم الاتصال، تماما كما هو الحال بالنسبة لهارولد لاسويل الذي يعتبره الكثيرون الأب الشرعي لعلم الاتصال، والذي جاء اهتمامه بالاتصال وأدواته (الإعلام) من واقع اختصاصه في علم الاجتماع السياسي. والواقع أن كلا المفكرين يقدمان لنا النموذج الأمثل لحالة ارتباط الفكر الاتصالي بالواقعين السياسي والاقتصادي الغربي، فالإثنان بنيا إسهامهما في مجال الاتصال على قاعدة وجودهما وانتمائهما للفكر اللبرالي. وقد بنى من تلاهم من مفكرين فكرهم قريبا من ذلك، إلا في حالات قليلة - كحالة إيفريت روجرز كما سنوضح بعد قليل.

لقد بنى ليرنر نموذجه على فرضية أساسية مستلهمة من فكر روستاو وهي : أن المجتمع التقليدي سيزاح لمصلحة المدنية والتحضر عندما يحدث وعي اجتماعي بقيمة التحديث وأثره، وذلك من خلال تعرض المجتمع إلى وسائل اتصال جماهيرية تمكنه من المقارنة بين التقليدي والحديث، وتؤدي به في المنتهى إلى الانحياز نحو الحداثة بل وإلى تقمصها[14].

لا يحتاج القارئ لكثير تمعن ليعرف أن نموذج ليرنر منحاز بكامله لفكرة التحديث في إطارها الغربي: نظام سياسي ومنهج اقتصادي وسلوك اجتماعي. والنموذج يعتبر وسائل الاتصال الجماهيري (أو وسائل الإعلام) وسيلة التوعية بالنموذج الغربي للتحديث وسط أفراد المجتمع، ويرى أن ذلك لن يحدث إلا

---

[13] Lerner. (1964) Op.cit.

[14] Bah, Umaru (2008). Daniel Lerner, cold war propaganda and US development communication research: An historical critique. Journal of Third World Studies, Vol. 25, No. 1, spring.

بوجود "تدخل" intervention ، يتم التخطيط له عبر سلطة مركزية تتطلع إلى إحداث التحديث كما هو مأمول. بمعنى آخر يجب أن تكون أدوات الاتصال في يد السلطة التي تخطط لإحداث التغيير. وبذلك يكون هذا النموذج قريباً جدا من نموذج الدعاية الهتلرية المعروف بالبروباقاندا propaganda النازية[15].

ومن نافلة القول اليوم أن نعيد التذكير بأن هذا النموذج، نموذج ليرنر، صادف هوى ومزاجاً عند عدد من قادة العالم الثالث في بدايات الستينيات من القرن الماضي، سنوات كان الأفارقة والأسيويون والعرب على أبواب الاستقلال أو في أتون معاركه. فقد وجد قادة تلك الشعوب في النموذج مبررا منطقياً لدعوتهم لبقاء وسائل الاتصال في يد السلطة - وهم هي- ، لتكتمل بذلك لهم أدوات السيطرة على المجتمع. صادف النموذج هوى لدى ساسة ذلك الزمان، فوسائل الإعلام هي أدوات تغيير المجتمع الموثوقة النتائج ، وهي أدوات التعبئة لاستنهاض الامة لبناء ذاتها، وهي أدوات التعليم والبناء السياسي. وبمثل هذه المهام الجسام، كيف لأدوات تغيير المجتمع النامي أن تكون في يدٍ غير يد السلطة، وكيف يمكن أن تترك دون تسييجها بالقوانين التي تمنع توجيهها لغير هدف التغيير، حتى ولو أدى ذلك إلى الحد من حريتها في النشر والنقد والتوجيه.

لقد فتح نموذج التحديث لدانييل ليرنر أبواباً واسعة لولوج أفكار سلطوية إلى قلب الفكر اللبرالي الذي أراد له أساطينه أن يسود. فقد تبنى ساسة عديدون في العالم الثالث النموذج باعتباره وسيلةً لبناء مجتمعٍ ناهض حديث تسيطر فيه الصفوة، وتوجه وسائل الإعلام فيه وجهة أحادية انتهت بالسيطرة السياسية لتلك الصفوة، دون أن تبلغ غايات النمو الاقتصادي المنشود للمجتمع[16]. وكان من ناتج تلك السيطرة الصفوية أن تململت قوى المجتمع، وعبرت عن نفسها بسبل شتى كان بعضها عنيفاً عصف بسيطرة الصفوة السياسية وخلخل أركان النظام الاجتماعي.

نموذج روجرز: استلهام المجتمع وسائل تغييره

لم يكن نموذج الاتصال الاجتماعي الذي طوره إيفريت روجرز عبر نظريته المشهورة "انتشار المبتكرات"[17] Diffusion of Innovations، بعيداً عن حركة التململ التي عصفت ببعض أركان المجتمعات في دول العالم الثالث. فقد فشلت نظريتا ليرنر وروستاو في وضع العالم الثالث على منصات الانطلاق الاقتصادي، بل وتفاقمت مشكلات المجتمعات النامية التي جعلت من نبذ التقليدي من أنواع التفكير ومناهج السلوك وأنماط العيش، طريقاً للتحديث. وقد عاد روجرز- بعد رؤيته لمآل أفكار ليرنر-

[15] هناك عدة مراجع في هذا الصدد، ولكن لبعض التفصيل حول صلة الدعاية بنموذج ليرنر القائم على تأثير وسائل الإعلام القوي ، راجع مثلاً :
McQuail, D. (2010). McQuails Mass Communication Theory (6th Ed.). London: Sage Publications.

[16] ينطبق هذه القول على معظم حكومات العالم العربي في ذلك الوقت، أبرزها بالطبع مصر والعراق وسوريا.

[17] Rogers, E. (2003) The Diffusion of Innovations.

ليحمل لواء الدعوة إلى استلهام المجتمعات التقليدية، وليس المجتمع الغربي، مقومات السلوك المفضي إلى النمو والتقدم. وصار عصب الفكر عند روجرز هو في سبر غور المجتمعات التقليدية للوقوف على مفاتيح التأثير فيها، واختيار مناهج التأثير الأكثر مواءمة لكل مجتمع وبيئة. وجاءت نظرية انتشار المبتكرات مستلهمة عدة نماذج من بيئات ثقافية واجتماعية متباعدة: من تنزانيا ، إلى الهند ، فالصين، فكوريا ، طرح من خلالها رؤيته لانتشار أفكار التغيير الاجتماعي في مثل تلك المجتمعات عبر مراحل اتصالية متداخلة ومتوالية، تلعب فيها الفئات الاجتماعية المختلفة دورا أساسياً. لقد بنت نظرية إيفريت روجرز فكرتها المفصلية على أن الاتصال الاجتماعي المباشر له موقع القوة في تدفق الرسالة عبر النسيج الاجتماعي من مستوى إلى آخر. وسعت النظرية إلى وضع البيئة الاجتماعية في قلب حركة الاتصال، ودفعت بوجوب استلهام ثقافة وقيم البيئة أساليب ووسائل الاتصال والاقتراب: بالرقص في مكان، بالغناء في آخر، بالشعر في جهة، وبالخطابة في أخرى، بالتلفزيون هنا، بالإذاعة هناك، وهكذا.

التغيير إذن –حسب مفهوم روجرز- رهن بخصائص المجتمع وثقافته، والتحديث لا يكون بالدفع من علٍ. والناس –عند روجرز- درجات في استيعابهم للأفكار والمعلومات، ودرجات في استجابتهم للمحفز. والوصول إلى مفاتيح التأثير على الناس، إنما رهن بالقدرة على استلهام واقع المجتمع وثقافاته أدوات تحفيز الأفراد لتغيير واقعهم. ورغم أن روجرز يبدو مقترباً بطرحه هذا، بما ننادي به هنا، إلا أنه لم يبتعد كثيراً عن رؤية التغيير والتقدم رهنا بنمط الحياة والسلوك الغربيين. ولا تثريب عليه في ذلك، فهو ابن بيئته.

دراسات الاتصال والمجتمع

لقد استعرضنا فيما مضى، نظرية واحدة لنبرهن أن الاتصال ودراساته ونظرياته غربي المنبت، وأن تطبيقاته على غير الغربي لا يلقى الرضى والاستحسان، حتى من أصحاب الفكر الغربي، كما رأينا في حالة روجرز. وقد نقترب أكثر من غرضنا لو وصلنا حديثنا بدراسات الاتصال والمجتمع، بحثاً عن إمكانات التعميم الممتد - زمانا ومكاناً - في مثل تلك الدراسات. فدراسات الاتصال والمجتمع التي يتعرض لها طلاب هذا العلم، متفرعة ومتشعبة، بعضها يقوم على تحليل دور الاتصال في بقاء ونمو وازدهار المجتمعات، وبعضها يتعلق بأثر الوسائل على أفكار وآراء ومواقف ومعتقدات أعضاء المجتمع، منفردين او مجتمعين.وبعض تلك الدراسات يتصل بأثر المجتمع – واقعه وخصائصه السياسية والاجتماعية - فيدور ومكانة المؤسسات الاتصالية، وفي ملكيتها ومحتواها.

وبذلك تنقسم هذه الدراسات بين نوعين: نوع يتناول أثر وسائل الاتصال في المجتمع، وآخر يتناول أثر المجتمع في محتوى وممارسة الوسائل. مثالنا في ذلك مجموعتين من النظريات، هما مجموعة نظريات

الاثر media effect theories، ومجموعة النظريات المعيارية normative media theories .
فالأولى تعكس دور الوسائل في المجتمع، والثانية دور المجتمع في شكل وممارسات الوسائل[18].
من أمثلة المجموعة الأولى- نظريات الأثر: الرصاصة السحرية، وترتيب الأجندة، والاستخدامات والتشبع، والحصاد الثقافي، والتأطير. ومن أمثلة الثانيةالنظريات المعيارية: نظريات الصحافة الأربعة[19]، نماذج وليم رو للصحافة العربية[20] ، نموذج وليم هاشتن[21]ونموذج ميريل ولوينشتاين[22].
تصلح النظريات المعيارية لقياسها بمقياس صلاحيتها للتعميم واتخاذ النموذج الذي نترافع ضده في هذا المقال. ودعنا نبدأ بنظرية أنظمة الصحافة الأربعة التي يعرف كل مطلع في العلم أنها بنيت على دراسة تاريخية وصفية تناولت الصلة بين التطورات السياسية التاريخية في أوروبا منذ عصر التنوير، مروراً بالثورة الفرنسية، ووصولاً إلى التطورات السياسية التي تلت الحرب الأهلية في الولايات المتحدة وقيام الثورة البلشفية التي أدت إلى قيام الاتحاد السوفيتي[23].
بنى أصحاب النظرية الثلاثة، أربعة أنظمة صحفية اقترحوها في ارتباط وثيق بالواقع السياسي الذي ساد في تلك الفترات التاريخية المذكورة. وظلت النظريات الأربعة تحكم الواقع النظري لعلاقة الإعلام (أو الصحافة) بالمجتمع ممثلا في نظام الحكم فيه لزمان طويل. وظلت علاقات وسائل الإعلام بالمجتمع على المستوى النظري الأكاديمي، مجمدة في هذا القالب الذي صنعته نظرية الصحافة ذات الأربعة أشكال، حتى نهاية الخمسينات حين تدخل عدد من الباحثين مقترحين نماذج أخرى.
من أولئك الباحثين رالف لوينشتاين وجون ميريل[24]، واللذان اقترحا نموذجا يستوعب تطورات الفكر السياسي والممارسة السياسية في الغرب، فاقترحا ثلاثة نماذج: نموذج صحافة حكومية، وصحافة خاصة، وصحافة حزبية، تستند على خمس فلسفات: سلطوية، اجتماعية سلطوية، حرية، اجتماعية حرة، واجتماعية وسيطة. ثم عاد ميريل وقدم – فيما بعد- نموذجا آخر ربط فيه بين التطورات الفكرية السياسية الغربية وبين تطور علاقة وسائل الإعلام بالمجتمع، فمن الفكر السلطوي المطلق وحتى حالة الفوضى، هناك مكان ودور لوسائل الإعلام تصنعه الفلسفة السياسية، وتسيِّجُه الدولة (المجتمع) بالقوانين.

---

[18]Severin W. & J. Tankard (1997) Communication Theories: origins, methods and uses in the mass media. New York: Longman.

[19]Seibert, F. Peterson, T. & Wilbur Schramm (1964) Four Theories of the Press. Chicago: University of Illinois Press.

[20]Rugh, 2004.Mass Media: Newspapers, Radio, and Television in Arab Politics.

[21]Hachten, (1987). (7th edition) The World News Prism. Oxford, UK: Wiley-Blackwell;

[22]Merrill J.C & Lowenstein, R.(2010) Media, Messages, and Men; New Perspectives in Communication. Bloomington, Indiana: Author House.

[23]McQuail, D. (2010). McQuails Mass Communication Theory (6th ed.). London: Sage Publications.

[24]Merrill & Lowenstein.Op. cit.

أما وليم هاشتن، فقد قدم في بداية السبعينيات، نموذجاً استوعب فيه نواقص نماذج السابقين عليه، فأدخل نموذجين جديدين هما نموذج الصحافة الثورية، والصحافة التنموية. وقد عكست هذه التحولات في النموذجين الرغبة في إدخال العالم الثالث في منظومة النظم الصحفية الغربية، وذلك بالنظر من زوايا الفكر السياسي والفلسفة السياسية الغربية.

وليم رو و"متقلب" النظام الصحفي العربي:

من بين النماذج التي نراها تستحق المعالجة المتأنية في سياق هذا المقال هو مجهود الدبلوماسي الامريكي السابق وعضو معهد الشرق الأوسط والخبير في أمور منطقة الشرق الأوسط وخاصة صحافتها، وليم رو[25].

والواقع ان نموذج رو – بل قل نماذج رو- يقدم لنا من ضمن ما يقدم، الدليل على خطأ وخطل التفصيل المسبق للأنظمة والعلاقات الاتصالية داخل الأنظمة الاجتماعية. كما يقدم دليلاً شديد الدلالة على أن التمثل بالنماذج الغربية قد لا يفضي إلى سواء السبيل. لقد بدأ وليم رو دراساته عن الصحافة العربية في كتابه الأشهر[26] الصادر عام 79، فاقترح فيه نموذجا ذي ثلاثة فصائل لفهم وتحليل الإعلام العربي هي الصحافة التعبوية، والصحافة الموالية، والصحافة المتنوعة. وقام في ذلك الكتاب بتصنيف الدول العربية إلى تلك الفصائل الثلاثة.

بعد عشر سنوات من طبعة كتابه الأول، عاد رو عام 89 وأعاد ترتيب العالم العربي ليستوعب متغيرات حقبة من الزمان[27]، فاحتفظ في إصدارته الجديدة بالأصناف الثلاثة، ولكنه أعاد ترتيب مواضع الدول في المجموعات الثلاثة.

في عام 2004 أعاد وليم رو كتابة مؤلفه الأول حول الصحافة العربية تحت مسمى جديد: "وسائل الاتصال الجماهيري في العالم العربي: الصحافة والإذاعة والتلفزيون في السياسة العربية"[28] ، وقام فيه بإعادة النظر في نموذجه الأصلي، بعد أن أعلن أن العالم العربي صار أكثر تعقيداً من أن يتم استيعاب تنوع وسائل إعلامه في ثلاثة نماذج، فرفع عدد أنواع الصحافة إلى أربعة، وقام بإعادة ترتيب المجموعات بنقل دول من مجموعة إلى أخرى، كما ناقش باستفاضة التحولات السياسية التي اكتنفت المنطقة خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات.

استلهام نماذج الآخرين: ميراث الفشل

ليس هناك شك في أن فشل نموذج وليم رو في ثبات التفسير الصائب للواقع الإعلامي العربي، هو دليل على فساد الالتزام بالمعايير والمقاييس الغربية عند قياس الآخرين. فقد فشل نموذج رو لأن العالم العربي

---

[25]Rugh, W. The Arab Press (2004).Op. cit.

[26]Rugh, W. The Arab Press.(1979). Syracuse: Syracuse University Press

[27]Rugh, W. (1989) (2nd Ed.)The Arab Press. Ames: Aiwa University Press.

[28]Rugh,.W. (2004) Op.cit.

بات شديد التغير، سريع الانتقال من واقع إلى آخر حتى صعب على وليم رو وأمثاله من الباحثين، استيعاب متغيرات البيئة العربية، فلم يجد إلا أن يقترح نمطاً صحفيا رابعا سماه (الصحافة الانتقالية) ليفسر به نوع العلاقة بين الصحافة والدولة في عدد من الدول العربية منها مصر وتونس والجزائر والأردن. لقد أعاد وليم رو التأكيد على حتمية اعتماد نظام الحكم، أي النظام السياسي، كعنصر أساس في إقرار النظام الإعلامي المناسب للدول العربية. كما نظر إلى واقع التداخل الكوني الناتج عن سيادة تكنولوجيا اتصال قادرة على إلغاء موانع الحدود، باعتبارهما عوامل مساعدة على تعضيد رؤيته لدور وسائل الإعلام التقليدية في الفعل السياسي العربي. وبذلك يتأكد مركزية الفكر الغربي في أطروحة وليم رو لنماذج صحفية عربية تقوم على ذات العناصر المطروحة في نظرية الصحافة الأربعة، القائمة على حجم الحرية ونوع الملكية، باعتبارها نماذج قياسٍ للاحتذاء benchmarking models .ويمكن بذلك، القول أن باحثاً مثل رو يعتبره الكثيرون مرجعاً في فهم السياسة والصحافة العربية، فشل في رؤية الواقع العربي، بيئة ودينا وثقافة، كافياً لتقديم نموذج عربي أصيل لا يجتر بالضرورة من نماذج الغرب قواعده، وإنما يستلهم – في معطياته واتجاهاته –خصائص بيئته العربية الإسلامية.

خطأ التعميم في نظريات الاتصال

إن أي دعوة للحديث عن كونية[29] universality الفكر الاتصالي دعوة قابلة للتجريح. فالنقل المسطري من تراث علماء الاتصال إلى غير بيئتهم، والتطبيق الحرفي لمناهج بحث علوم الاتصال في كل مكان، والتمسك بشمولية أثر وسائل الاتصال على كل بيئة، أمرٌ يشوبه الكثير من ضيق الأفق الفكري، وينم عن ضعف الحساسية الأكاديمية تجاه خصوصية البيئة الاجتماعية.

دعنا نأخذ واحدة من النظريات الأكثر تناولا في فصول الدراسة في العالم الغربي، والعالم العربي والإسلامي أيضاً: نظرية ترتيب الاجندة.

دون الخوض في استعراض مكونات النظرية[30]، يمكن النظر إلى جوهرها الذي يقول أن وسائل الإعلام هي التي تحدد للمجتمع ما يفكر فيه، ومن ثم تجعل موضوع التفكير "مسألة مجتمعية" يمكن – حسب الفكر الاتصالي الغربي – أن تكسر أو تصنع ساسة وحكومات.

إذا سلمنا – استناداً على جدلية الفكر الغربي- أن الوسائل الإعلامية يمكن أن يكون لها مثل ذلك الأثر، فإن أخذنا بمثل تلك الجدلية وقبولنا بها لقياس الأثر في مجتمعاتنا العربية الإسلامية، هو خطأ. فالباحثون الغربيون الذين بحثوا في قضية الصحافة ودورها في ترتيب الأجندة، لا يعتبرون للجماعة أي أثر في

[29] لا نحتاج للتأكيد بأن هذه الدعوة منطلقها المركزية الغربية التي تسود عالم الأكاديميا في العموم. فكل نظرية غربية تعتبر قابلة للتطبيق في غيرها من البيئات، كما هو الحال في النظريات السياسية والاقتصادية.

[30] لأسس نظرية ترتيب الأجندة، راجع:قلندر، محمود (2015) وسائل الاتصال والمجتمعز الإمارت العربية: دار الفلاح.

تكوين "رأي المجموعة"[31]، لأنه، أصلاً، ليس للجماعة في منظومة الفكر الاجتماعي الغربي كبير اعتبار. وذلك سببه القواعد الفلسفية التي يقوم عليها الفكر الغربي من حيث إعلائها للفردية، وارتهانها لسعادة الإنسان بوجوده الحر، المحاط بأقل قدر من القيود في إطار الجماعة. ولهذا فإن أخذ الاتصاليين العرب والمسلمين- وغير العرب وغير المسلمين في العالم غير الغربي- بنهج الفكر الغربي واعتبار مجتمعاتهم قائمة على الأحادية والفردية.

وبمثل هذا الفهم يصبح السؤال المشروع هو: من يرتب الأجندة السياسية في عوالمنا غير الغربية؟ هل حقاً لوسائل الإعلام ذلك الدور المحيط الذي يصبغه الفكر الغربي لها في المجتمعات الغربية؟ هل حقاً وسائل الإعلام هي محور وركيزة التفكير السياسي الجمعي على نحو ما طرح الاتصاليون السياسيون الغربيون من أمثال إليزابيث نويلا نويمان، في رؤيتها للولب الصمت[32] الذي تسهم في تعميق لولبيته الوسيلة ومحتواها، أكثر من تواصل وتفاعل البشر؟ ثم ما هو دور الجماعات – في المجتمعات غير الغربية- في ترتيب أجندة الوسيلة نفسها[33]؟ أليست هموم وقضايا الناس هي التي تشكل اهتمامات الوسيلة في مجتمع تتماسك فيه الجماعة وتجد المؤسسات الإعلامية - بمالكيها ومحرريها- نفسها جزء من "الجماعة"؟

وإذا كان الحال كذلك، فإن سطوة وسائل الإعلام المنظَّر لها في المجتمع الغربي، قد لا تنطبق بحرفها ونقطتها في غير العالم الغربي، خصوصاً إذا ما أخذنا في الاعتبار بعض المعطيات والمتغيرات الاجتماعية المهمة، من تعليم ودخل وتعرض للوسائل الإعلامية، والتي يقاس من خلالها –عادة- أثر الوسيلة الإعلامية.

يمكن بالطبع القول بأن الصفوة الاجتماعية في المجتمعات التقليدية لها موقع الريادة في قيادة الرأي الاجتماعي، وقد يقول الذي يود أن يحتج بقوة أثر الإعلام في ترتيب الأجندة، إنها تقود الرأي بما هو في الوسيلة[34]. ولكن ذلك غير صحيح، فالصفوة في عوالمنا صفوة قامت وتقوم على مبادئ ومواقف فكرية

---

[31] في منظومة الفكر الاجتماعي والسياسي الغربي، وسيلة تكوين الرأي العام هم قادة الرأي opinion leaders : أفراد لهم مزايا اجتماعية واقتصادية تجعل لهم الأثر في رأي المجموعة. الخصائص الفردية، إذن، هي التي تسهم في تشكيل الرأي، وليست خصائص الجماعة.

[32] Noelle-Neumann, Elisabeth (1984). The spiral of silence. A Theory of Public Opinion – Our social skin, Chicago: University of Chicago Press

[33] مفهوم ترتيب أجندة الصحافة تم مناقشته في مصادر عدة. راجع:

McCombs, M., Shaw, D. (1993, January 1). The Evolution of Agenda-Setting Research: Twenty-Five Years in the Marketplace of Ideas. Retrieved March 9, 2015, from http://www4.ncsu.edu/~amgutsch/MccombsShawnew.pdf

[34] هذا هو مفهوم الوسيلة هي الرسالة لمارشال ماكلوهان. راجع:

McLuhan, Marshall; Quentin Fiore and Jerome Agel (1967). The medium is the massage, an inventory of effects. New York: Ginko Press.

مسبقة، لا يغير منها محتوى وسيلة إعلامية كثيراً. وبذلك يصبح القول بأثر الوسيلة في قيادة الرأي قولاً يصعب وضع البراهين له أمام المحتج عليه.

البحث العلمي في الاتصال وغير الاتصال

وليس أمر ضعف الحساسية الأكاديمية تجاه خصوصية البيئة الاجتماعية، وقفاً على تطبيق نظريات الاتصال في غير محلها. بل الحال هو عينه في مجالات البحث العلمي في عدد من العلوم الاجتماعية، والتي أهلك السعي نحو العلمية فيها ظهرها، حتى صارت مسخاً مشوها يكرر فيه غير أهلها ذات الفرضيات ويعددون ذات المتغيرات، ويقدمون نفس التعريفات، إجرائية وعملية؛ فيصلون إلى ذات النتائج: أثر من بعد فعل، ونتيجة من بعد تجربة، ويضربون بصدقية النتائج فيها مهما تغيرت العوالم.

إن المتأمل في أمر البحوث الاجتماعية بحساسية، لا يفوته أن يسأل غيره من المستمسكين بوجوب علمية البحوث في العلوم الاجتماعية: ما هو مكان منهجٍ بحثي كالمسح الاجتماعي في مجتمعات شرقية تترابط قواها وتقوم أركان دعائمها على اللحمة الاجتماعية؟ هل تصلح، في مثل تلك المجتمعات التي يغيب فيها الفرد في خضم الجماعة، ويذوب الخاص في محيط العام، استخدام ذات مقاييس البحوث؟هل تصلح – مثلاً- أنظمة العينات،عشوائية كانت أو عمدية، بسيطة كانت أو مركبة، لتكون – وحدها- دليلاً على قوة الموضوعية وثبات الصدقية في مجتمعات أهم خصائصها الكلية قبل النسبية، والتجمع قبل التشتت؟ هل تصلح المقابلة – كنوع من أنواع المسح مثلاً – لاستخراج المعلومات الصادقة من أفراد مجتمع متماسك حتى يصير الفرد الواحد قليل الإحساس بقيمته منفصلاً عن الآخرين؟.

لا ينبغي اعتبار هذا الكلام دعوة للانقلاب الفكري على كل نهج من مناهج الفكر الغربي. فهو لا يلغي مكانة ودور المسح الاجتماعي، بل يتساءل هل هو النظام الأمثل لواقع ثقافي كواقع العالم الذي نعيش فيه. إن الدعوة هنا، هي في وجوب استلهام واقعنا، واعتبار مناهج حياتنا، وأنماط فعلنا وسلوكنا، لوضع أسس الفكر الاتصالي الأصيل، وهي بذلك دعوة لا تلغي الفكر العلمي الغربي، بل تبني عليه. وفي بنائها على الفكر الغربي، تأخذ من معطيات فكرنا، وتستلهم تراثنا لتقدم نموذجاً ذي هجنة فكرية تقوي منه وتجعله صالحاً للتعبير عن واقع مجتمعاتنا وغير بعيد عن ساحة الفكر الاتصالي العالمي.

تهجين الفكر الاتصالي: الاتصال والمجتمع نموذجاً

ربما يكون المخرج من شراك البقاء في قوقعة الفكر الاتصالي الغربي، هو في ابتداع أساليب للمقاربة والمعالجة لا تنقل –بالمسطرة- النماذج الغربية الاتصالية- نظريات وفرضيات وبحوث- لتطبقها على واقعنا، بل تستنبط من فكرنا وتراثنا ما يعين على الفكاك من هذه القوقعة.

ولا نجد مفكراً يعين عمله الفكري على استنباط تراثنا الأصيل من أجل التنظير والبحث في مجال الاتصال والمجتمع، أكثر من المفكرالعربي المسلم عبد الرحمن بن خلدون. فقد اعتبر بن خلدون[35]،

[35] بن خلدون ، عبد الرحمن .http://www.islamicbook.ws/tarekh/mqdmt-001.html

الوجود الاجتماعي، (العمران)، مقترناً أيما اقتران بمؤسسة الاتصال الإنساني الراكزة، وهي اللغة. فهو يعتبراللغة أحدى مقومات العمران البشري في انتقاله من حالة البداوة إلى الحضارة. ويرى اللغة (أو الاتصال) أحدى أهم وسائل الحفاظ على روح العصبية بين أفراد المجتمع. فاللسان الواحد هو عنصر الاستمساك بالقيم الرواسخ، ووسيلة بث روح العصبية والانتماء الجامع. ويمضي بن خلدون ليصف حال الانتقال من عمران البداوة إلى عمران الحضارة، فيرى اختلافا بين لغة البداوة و لغة الحضارة، ويجلي رؤيته أكثر بالقول إن أولى الأمر في عمران البداوة، يسهل عليهم بناء العصبية على قاعدة لغة البداوة المشتركة، فإذا ما دخلوا عمران الحضارة وجب عليهم استبدال المعطيات اللغوية لتثبيت دعائم العصبية في عمران الحضارة. وبذلك فإن اتصال البداوة الذي تتماسك به عصبية المجتمع (العمران) مختلف عن اتصا ل عمران الحضارة، ففي كل تسود معان ومفردات متشربة ألوان محيطها، ومغروسة جذورها في البيئة التي هي فيه. ويرى بن خلدون في الانتقا ل من عمران البداوة إلى عمران الحضارة انتقالاً ضخماً تتخلخل فيه الثوابت ، وتتبدل فيه المراجع، حتى يصعب لغير الموجود في تلك البيئة استكناه معنى الأقوال وتفسير فحوى الأفعال.

وقد استدل بن خلدون في مقدمته على أثر البيئة في تكوين وتلوين ذخيرة الاتصالي، بقصة الشاعر علي بن الجهم مع الخليفة المتوكل، والذي انتقل من بيئة بداوة جعلته لا يرى عيبا في مدح الخليفة بالكلب والتيس والدلو، إلى بيئة حضارة في ضفاف دجلة وفي حضن العمران، جعلته يصف العيون والهوى والعشق بما جعل المتوكل يصيح فيمن حوله أن يوقفوه بعد أن خشي من أن يذوب رقة[36].

لقد أفرد بن خلدون حيزاً من كتاباته في مقدمته للحديث عن اللغة ومكانها في تماسك المجتمع ونموه؛ فهو يقول إن أهل الأمصار يستمدون التعبيرات والمعاني من واقعهم، حتى يضحى الاتصال عندهم قائماً على خصائص أمصارهم، وطبائعهم الذاتية لكون وجودهم في تلك الأمصار[37]. وبذلك يكون بن خلدون أول من جعل البيئة عاملاً أولاً في تكوين الرسالة وفي فهمها، وهو في ذلك لا شك سابق كافة كتاب ومنظري الاتصال الثقافي من أمثال قيرت هوفستيد Geert Hofstede صاحب فكرة الأبعاد الثقافية الأربعة[38]وإيدوارد هال Edward Hall الذي أطلق تعبير "اللغة الصامتة" على معاني حركة الجسد وأبعادها الثقافية[39]. لقد وضع هذان العالمان قواعد علم الاتصال الثقافي، وقدما مفرداته الاساس، كمفاهيم المجتمعات الأحادية والكلية، والمجتمعات ذات العتبات العليا High threshold، و ذات العتبات الدنيا low threshold، ومبدأي الزمن ذي البعد الواحد Monochromic والزمن متعدد الأبعاد

[36] ترد القصة في كثير من المراجع، ولكن بن خلدون يوردها في معرض حديثه عن أثر البيئة في اللغة.

[37] بن خلدون، مصدر سابق

[38] Hofstede G. (1980): Culture's Consequences: International Differences in Work-Related Values. Beverly Hills CA: Sage Publications.

[39] Hall, E. (1959). The Silent Language. Garden City, N.Y.: Doubleday.

Polychromic وغيرها[40]. ولا نريد أن نقطع بأن أفكار هؤلاء العلماء مستمدة من فكر خلدوني، ولكنا بالقطع قائلون بأن مبدأ التراكمية في العلم الذي مكن أفكار بن خلدون من أن تكون أساس علم الاجتماع كله، يمكن أن تكون المهمة لأفكار هذين العالمين .

وعلى صعيد المعطى النفسي في الاتصال، نجد بن خلدون قد طرق – منذ ستة قرون- أسس نظريتين من نظريات علم نفس الاتصال، هما نظرية التنافر المعرفي cognitive dissonance لصاحبها ليون فستنقر[41]، ونظرية الاستخدامات والتشبع uses and gratification، لجورج قيربنر[42]. لقد تحدث بن خلدون منذ ستة قرون، عن تعامل المتلقي مع الرسالة الاتصالية(الخبر) قائلاً:

"... فإن النفس إذا كانت على حالة من الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى يتبين صدقه من كذبه. وإذا ظاهرها تشيع لرأي أو نحلة، قبلت ما يوافقه من الأخبار لأول وهلة، فكان ذلك الميل والتشيع غطاءً على عين بصيرتها من الانتقاء والتمحيص، فتقع في قبول الكذب (الخبر) ونقله"43

يشير بن خلدون هنا إلى أهمية الواقع النفسي للمتلقي في تحديد أثر الرسالة. كما يشير إلى أن الرسالة المتوافقة مع المعطى النفسي للمستقبل، تلقى القبول والاستيعاب، حتى وإن كانت الرسالة كاذبة. وبذلك ضرب بن خلدون –بضربة واحدة - كبد نظريتين ظن صاحباهما أنهما الآتيان الأولان بهما. تقول الأولى أن المرء يتخير من محتوى الوسائل ما يتوافق مع حاجاته النفسية العقلية، وتقول الأخرى أن عقل المرء يلفظ ما يتناقض ومحتواه من المعرفة ويتقبل ما يتفق ومحتوى العقل.

<u>نحو نموذج أولي لقياس أهداف وسائل الاتصال في المجتمع</u>

يمكن الآن طرح نموذج يلخص فكرة استلهام البيئة والواقع في البحث والتنظير في علوم الاتصال[44]. ولا بد من التأكيد هنا أن النموذج المطروح لا يستوعب كافة مجالات الاتصال، و لا يصلح لمعالجة كل القضايا في هذا الحقل. بل هو نموذج يرمي إلى معالجة ما تم طرحه في بداية هذا المقال، وفي كثير من الكتب والمراجع حول خطل التعميم في علم الاتصال، وخصوصاً التعميم ذي الصلة بالنظريات، وأهمها المعيارية ذات الصلة بالنظم الصحفية ، وعلاقات الصحافة بالنظم السياسية والاقتصادية.

---

[40]Gudykunst, William B. (2003), (ed.), Cross-Cultural and Intercultural Communication, Thousand Oaks: Sage.

[41]Festinger, L. (1957). A Theory of Cognitive Dissonance. Stanford, CA: Stanford University Press.

[42]Blumler, J. G. & Katz, Elihu (1975). The Uses of Mass Communications: Current Perspectives on Gratifications Research. New York: Sage Publications.

[43]عبد الرحمن بن خلدون، http://www.islamicbook.ws/tarekh/mqdmt-001.html 1 para زيارة الموقع : 2015-12-12 .

[44]قدم هذا النموذج قبل تطويره في ورشة حول تدريس مادة الاتصال والمجتمع بمعهد إمام التابع لجامعة الجزيرة بالخرطوم عام 2014

لقد تم تطوير هذا النموذج (نموذج 1) ليلخص بشكل شامل حتمية استلهام البيئة والواقع، لمحاولة فهم مكانة ودور الاتصال وأدواته في أي مجتمع. ويبدأ النموذج بتحديد المعطيات الرئيسة للمدخل الأول **(المجتمع)**، وهي المعطيات ذات الأثر في بلورة ملامح العلاقة بين القوى المسيطرة في أي مجتمع وبين وسائل الاتصال، وهذه المعطيات هي[45]:

النظام السياسي

النظام الاجتماعي

النظام الاقتصادي

النظام الديني

المعطيات الثقافية

البيئة الجغرافية

ثم يقوم النموذج بتشريح كل واحدة من هذ المعطيات ساعياً إلى تحديد ملامحها المميزة في المجتمع تحت الدراسة، باعتبار أن المعرفة المتعمقة لهذه المعطيات هي الأساس في اختيار المقوم التالي وهو مقوم الاستراتيجية الإعلامية؛ من حيث الفلسفة الاتصالية ونماذج الملكية ومن حيث أهداف الدولة من إعلامها، تغييراً للمجتمع وتنمية له، أو تثبيتاً لدعائم الاستقرار السياسي والاجتماعي فيه. أما المقوم الثالث فهو مقوم الوسائل المختارة في تناسب وتناغم مع ما تم تقديره من خصائص المقومات السابقة، ثم المقوم الأخير وهو مقوم الممارسات الفعلية للاتصاليين، اعتماداً على ما تم تقريره من خصائص للمجتمع، وسياسات إعلامية مبنية على النظام الإعلامي. وبذلك يتداخل النموذج ليقدم الصورة المتكاملة لتأثير خصائص المجتمع في الخيارات الاتصالية الشاملة: أهداف وسياسات ووسائل وممارسات.

إن النموذج المقترح يمكن تطويره إلى آلية قياس predictor (نموذج 2) يسهل بها التنبؤ بأساليب وأهداف وخصائص الاتصال في كل مجتمع ، ويمكن من خلالها اقتراح أنجع الوسائل المساعدة على تحقيق الأهداف القومية للمجتمع. وتتكون الآلية من ثلاثة مدخلات وثلاثة مخرجات، تشكل المدخلات المعطيات الاجتماعية والثقافية والبيئة المؤثرة في القرارات القومية الكبرى في المجتمع ، بينما تشكل المخرجات أثر تلك القرارت في االخيارات الاتصالية لمجتمع. ويمكن ملاحظة العلاقة بين نموذج خصائص المجتمع المؤثرة في الخيارات الاتصالية (نموذج 1) ، وبين آلية القياس، إذ تتكون أجزاء المدخلات من ذات المعطيات الواردة في النموذج الأول. وبذات القدر، فإن المخرجات هي في واقعها تلخيص للمعطيات التي تشكلت منها الاستراتيجات الإعلامية وخيارت الوسائل والممارسات في النموذج الأول.

[45] كل واحدة من هذه المقومات لها معطياتها المتعددة، وقد تم تقديما في قلب النموذج في الصفحات التالية.

بهذا يمكن القول بأن النظام الإعلامي (أو النظام الصحفي) في العالم العربي، إنما يتشكل بالقدر الأكبر من تداخل الواقع الاجتماعي الثقافي والسياسي أكثر من اعتماده المطلق على النظام السياسي الذي يحكم في البلد المختار، كما يعتقد وليم رو.

خاتمة:

قصد هذا المقال تطوير نموذج يصلح لتحليل العلاقة بين وسائل الاتصال والإعلام دون الاعتماد على النماذج الغربية المعروفة والمستخدمة في كل مكان لتفسير العلاقة بين النظام السياسي ودور وسائل الإعلام، والمجسدة في عدة أشكال وتحت مسميات مثل "النظام الإعلامي" أو "النظام الصحفي". وقد اتجه النموذج المقترح إلى الابتعاد عن الخيارات المعيارية التي طرحت في نموذج سيبرت بيترسون وشرام المسمى "نظريات الصحافة الأربعة"، أو تلك التي طرحت في نموذج وليم رو في كتابيه "الصحافة العربية" و "وسائل الإعلام في العالم العربي".

واقترح المقال نموذجا متعدد المستويات تشمل كل مستوى مقومات تؤثر كل منها في المقوم الذي يليه، لتشكل معاً المدخلات التي تقود إلى مخرجات هي في الواقع معطيات النظام الإعلامي أو مشكلات العلاقة بين وسائل الإعلام والنظام السياسي.

نموذج 1. خصائص المجتمع المؤثرة في ممارسات الاتصال

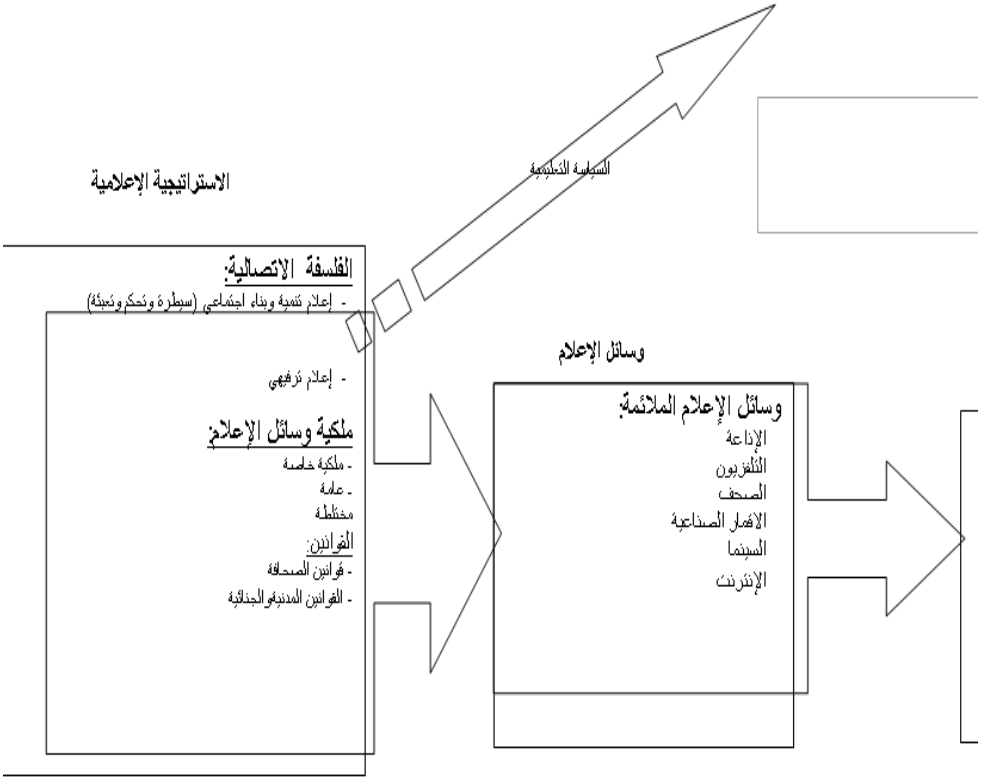

نموذج 2. آلية قياس علاقة وسائل الإعلام بالمجتمع

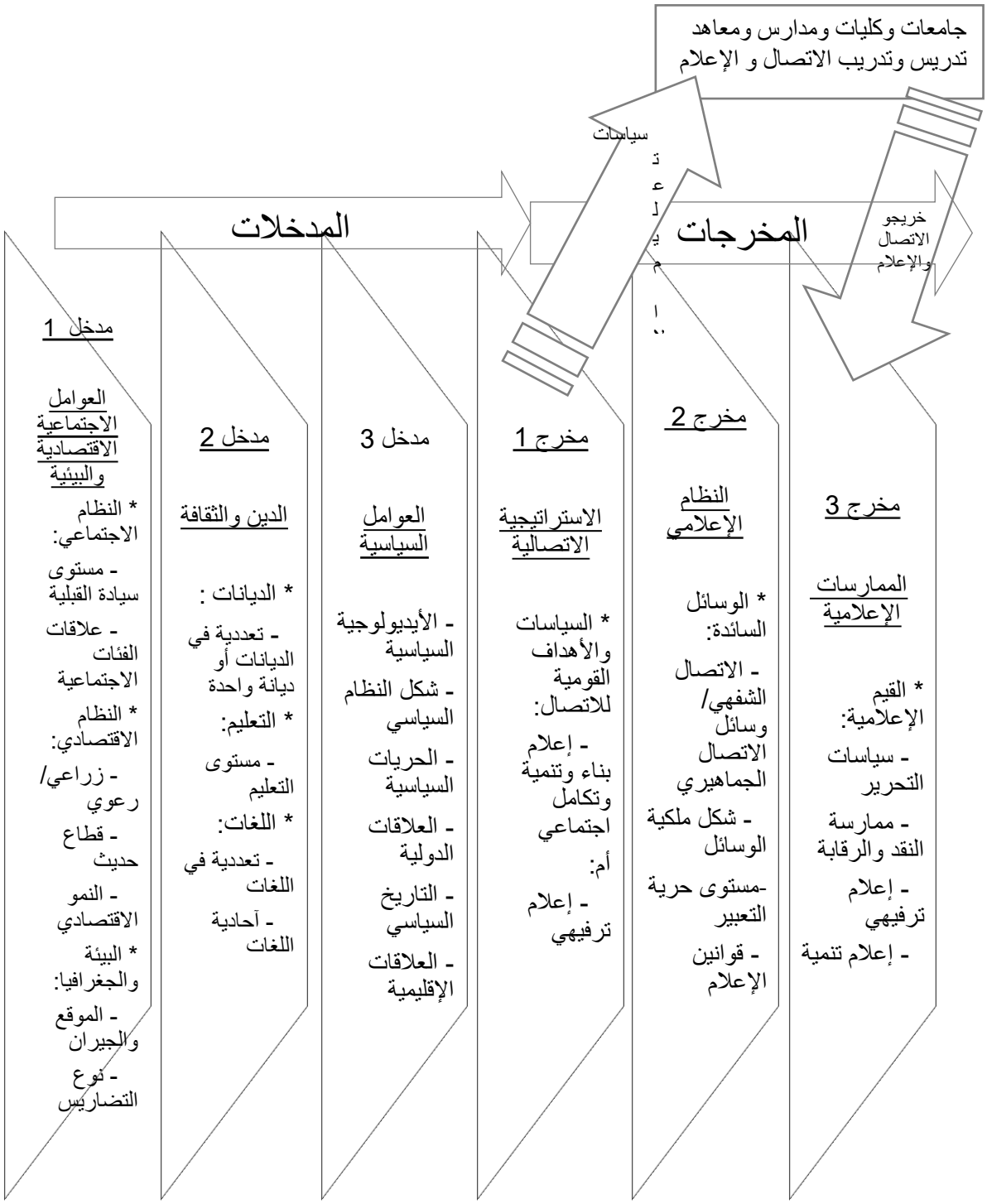

المصادر والمراجع

أولاً المصادر العربية:

بن جرير الطبري.(1407 هـ.) تاريخ الطبري دار الكتب العلمية – بيروت- ط.أولى ،

خالد ياجي (محرر) (2007)" الإسلام والغرب: نحو عالم أفضل". سلسلة ندوة الجزيرة

عبد الرحمن بن خلدون،. مقدمة بن خلدون. رابط:

http://www.islamicbook.ws/tarekh/mqdmt-001.html

علي عبد الواحد وافي، (1979) مقدمة بن خلدون (ط 2) القاهرة: مطبعة النهضة. ص. 402

محمود قلندر، ومحمد باكر عوض (2009) اتجاهات البحث في علوم الاتصال. دمشق: دار الفكر.

ثانياً المصادر الاجنبية

Ameen, S. (1977).Imperialism and Unequal Development. New York: Monthly Review Press.

Bah, Umaru (2008).Daniel Lerner, cold war propaganda and US development communication research: An historical critique. Journal of Third World Studies, Vol. 25, No. 1, spring.

Blumler, J.G. &Katz, Elihu (1975). The Uses of Mass Communications: Current Perspectives on Gratifications Research.New York: Sage Publications.

University of Illinois Press.

Festinger, L. (1957). A Theory of Cognitive Dissonance. Stanford, CA: Stanford University Press.

Frank, A. G. (1969).Capitalism and Underdevelopment in Latin America.New York: Monthly Review Press.

Gudykunst, William B. (2003), (ed.), *Cross-Cultural and Intercultural Communication*, Thousand Oaks: Sage.

Hall, E. (1959).The Silent Language. Garden City, N.Y.: Doubleday.

Hofstede G. (1980): Culture's Consequences: International Differences in Work-Related Values. Beverly Hills CA: Sage Publications.

Karen, P.&Barbato,R. (1985). The multinational corporation in the less developed country: The economic Development model versus the north-south model. Academy of Management Review, Vol. 10. No. 1.18-14.

Lerner, D. (1964). The Passing of Traditional Societies: Modernizing the Middle East. Glencoe: Free Press.

McQuail, D. (2010). McQuails Mass Communication Theory (6th ed.). London: Sage Publications.

Merrill, J. C. (1990).The Imperative of Freedom: A Philosophy of Journalistic Autonomy. Indiana: Freedom House

Noelle-Neumann, E. (1993). The Spiral of Silence: Public Opinion – our social skin, University of Chicago Press.

Rostow, Walt Whitman (1962), "The Stages of Economic Growth: A no-communist Manifesto" London: Cambridge University Press.

Rugh, W. (1979).The Arab Press. Syracuse: Syracuse University Press.

Rugh, W. (1989) The Arab Press. Syracuse: Syracuse University Press

Rugh, W. (2004) Arab Mass Media: Newspapers, Radio, and Television in Arab Politics (2004)

Rugh, W. (2007) Do National political systems still influence Arab media? Arab Media and Society. No. 2, Summer 2007.

Severin W. & J. Tankard (1997) Communication Theories: origins, methods and uses in the mass media. New York: Longman

The MacBride Commission (2003). Many Voices, One World: Towards a New, More Just, and More Efficient World Information and Communication Order. Lanham, Maryland: Rowman& Littlefield Publishers.